

الفصل الثالث

الشعراء العنان في الجاهلية

obeikandi.com

الشعراء العشاق في الجاهلية

الشعراء العشاق أو المتيمون الذين أحبوا امرأة واحدة حباً صادقاً عفيفاً وقالوا فيها الشعر ولقوا في سبيلها الشدائد والصعاب والهلاك أحياناً، وأمثال هؤلاء الشعراء في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي سموا بالشعراء العذريين، فالشعراء الذين أحبوا هذا الحب الصادق العفيف هم متيمون وهم عذريون وإن كان مصطلح العذريين قد جاء متأخراً، ويصح أن نطلق على كل الشعراء الذين أحبوا هذا الحب اسم الشعراء العذريين، فالغزل العذري فيما نرى لم يكن منقطعاً عن أصوله وجذوره الجاهلية بل كان امتداداً لشعر الشعراء الجاهليين وشعراء صدر الإسلام، وقد حافظ الشعراء العذريون في الإسلام على تقاليد الغزل الجاهلي وتأثروا به وجاءت المواقف العاطفية والمشاعر والأحاسيس والصور والتشابه الجاهلية نفسها لدى الشعراء العذريين مع شيء من التطور والتميز، وكما كان الحب العذري في الإسلام حباً عاطفياً صادقاً فيه مسحة من الحزن، فكذلك كان هذا الحب عند الشعراء الجاهليين .

والشعراء الجاهليون الذين أحبوا وعرفوا بالغزل العفيف الصادق كثيرون منهم المرقش الأكبر والمرقش الأصغر وعبد الله بن العجلان النهدي ومالك بن الصمصامة الجعدي وقيس بن الحداية ومسافر بن أبي عمرو القرشي وعنترة بن شداد العبسي وغيرهم، وستناول بالدرس من هؤلاء الشعراء الذين توافرت أخبارهم ووصلت أشعارهم وعرفت لهم قصة حب مع فتاة واحدة معروفة متميزة . ومن هؤلاء الشعراء :

المرقش الأكبر وأسماء

عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل المتوفي حوالي ٧٥ قبل الهجرة / ٥٥٠ للميلاد ، والمرقش لقب له لُقِّبَ به لقوله : (١)

الدار قفرٌ والرسومُ كما رُقِّشَ في ظهر الأديم قلمٌ
وهو عم المرقش الأصغر، والمرقش الأصغر عم طرفة بن العبد، وقصة المرقش الأكبر الذي أحب ابنة عمه أسماء فحُرِّمَ منها تكررت عند أكثر الشعراء العذريين في صدر الإسلام والعصر الأموي، وصار قدوة ومثلاً للشعراء بعده كما صار عبد الله بن عجلان وعروة بن حزام، يقول جميل بن معمر متأسياً بمن قبله من الشعراء المتيمين : (٢)

قد مات قبلي أخو نهدٍ وصاحبهُ مَرَّقُشٌ واشتفى من عروة الكمدُ
وكلهم كان من عشقٍ منيَّتهُ وقد وجدتُ بها فوق الذي وجدوا
كان المرقش من فرسان قومه وله وقائع وبلاء حسن في حروب قومه بكر بن وائل مع بني تغلب، وقد أحب المرقش ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك، عشقها وهو غلام، وكان قد رُبِّيَ معها صغيراً فخطبها إلى أبيها فقال له : لا أزوجك بها حتى تُعرف بالباس، وترأس وتأتي الملوك، وكان يعدُّه فيها

(١) المفضليات ص ٢٣٧ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ ، والشعر والشعراء ص ١٠٣ والأغاني ١٣٦/٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢ .

(٢) ديوان جميل ص ٥٧ .

المواعيد، فخرج مرقش فأتى ملكاً من ملوك اليمن ممتدحاً له، فأنزله وأكرمه وحباه، وأقام عنده زماناً، ثم إن عوفاً عم مرقش أصابته سنة فأجذب، فخطب إليه رجل من مراد أحد بني غُطَيْف، فأرغبه في المال فزوجه ابنته أسماء على مائة من الإبل، ورحل المرادي بأسماء إلى بلاده، ثم إن مرقشاً أقبل فأشفق عليه أخوته وبنو عمه من أن يعلموه بتزويج ابنة عمه، فاتفقوا أن يخبروه بأنها ماتت، فذبحوا كبشاً وأكلوا لحمه، ودفنوا عظامه ولقوها في ملحفة ثم قبروها، فلما قدم مرقش عليهم أخبروه أنها ماتت، وأتوا به موضع القبر، فحزن وصار بعد ذلك يعتاده ويزوره، وقد مرض وضنى ضنىً شديداً، فبينما هو ذات يوم مضطجع وقد تغطى بثوبه، وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما، إذ اختصما في كعب، فقال أحدهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا: إذا جاء مرقش أخبرناه أنه قبر اسماء، فكشف مرقش عن رأسه وقعد مذعوراً، ودعا الغلام فسأله عن الحديث فأخبره به وتزويج أسماء من زوجها المرادي فدعا المرقش وليدة له ولها زوج من عُقَيْلة كان مملوكاً أجيراً لمرقش، وكانت له رواحل فأمره بإحضارها ليطلب المرادي زوج اسماء، فركب المرقش ومعه الغفلي وزوجته طالين ديار أسماء، وكان المرقش قد ضنى ضنىً شديداً فازدادت علته في الطريق حتى ما يحمل إلا معروضاً وقد ثقل على الوليدة وزوجها، فنزلا كهفاً بأسفل نجران من مخاليف اليمن وهي أرض مراد، ومع الغفلي امرأته وليدة مرقش، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها: اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً، فجعلت الوليدة تبكي من ذلك، فقال لها زوجها: أطيعيني، وإلا فأني تاركك وذاهب. قيل: وكان مرقش يكتب، وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة وهما أحب ولده إليه، دفعهما إلى نصراني من أهل الحيرة فعلمهما

الخط، فلما سمع مرقش قول الغفلي للوليدة، تلبث حتى ناما، ثم زحف
فكتب على مؤخرة الرجل هذه الأبيات : (١)

يا صاحبي تلوّماً لا تعجلاً إن الرحيل رهين أن لا تعدّلا
فلعلّ بطاًكُمَا يفرطُ سيئاً أو يسبقُ الإسراعُ سبباً مقبلاً
يا راكباً إمّا عرّضتَ فبلغنُ أنسَ بن سعدٍ إن لقيتَ وحرّماً
لله درُّكُمَا ودرُّ أبيكُمَا إن أفلتَ الغفليُّ حتى يُقتلا
من مبلِّغِ الأقوامِ أن مرقشاً أمسى على الأصحابِ عبثاً مثقلاً
ذهبَ السباعُ بأنفه فتركه أعشى عليه بالجبالِ وجيئلاً
وكأنّما تردُّ السباعُ بشلوه إذ غابَ جَمْعُ بني ضبيعةٍ منها

وجاءته السباع فأكلت لحمه وبعض أنفه .

فلما قدم الغفلي وامرأته سألوه عنه، فقال قدم مات، ثم إن حرملة نظر
ذات يوم إلى رجل الغفلي ففهم الأبيات ؛ فشد عليه وعلى امرأته فأقرأ
أنهما تركاه على حال ضيعة لما نالهما من الجوع والجهد، فوثب حرملة على
الغفلي فقتله .

أما المرقش فقد مر به راع كان يعتاد ذلك الكهف، فسأله مرقش ممن
هو؟ فقال : رجل من مراد أرعى على غنم زوج أسماء، قال : فهل تراها ؟
فقال : هيهات لا أراها أنا ولا غيري ، فقال : أما لك سبب تصل به ؟ فقال
: بلى، تأتيني خادمها كل ليلة إذا رحت بقعب فأحلب لها فيه عنزاً، فدفع
إليه خاتمه وقال : إذا حلبت فارم بالخاتم في القعب، فإنك مصيبٌ خيراً لم

(١) شرح المفضليات للأبباري ٤٥٩ - ٤٦٠، وانظر : الأغاني ١٣٧/٦ - ١٤٠ .
والشعر والشعراء ص ١٠٣ - ١٠٤ . الأعشى : ذكر الضباع . الجيئل : أنثى الضباع .

يصبه راع قط، ففعل الراعي، فلما أخذت أسماء القعب لتشربه ضرب الخاتم ثناياها، فأخذت الخاتم وقد عرفته، فسألت الخادم فقالت لا علم لي به، فأرسلت إلى زوجها فأخبرته وسألوا الراعي فأخبرهم بخبر مرقش وهو في كهف حُبَان وهو دَنْفُ بآخر رمق، فقالت أسماء: هذا مرقش؛ العَجَلُ العَجَلُ، فركب فرسه وحملها على بعير، فانتهى إليه بعد يوم وليلة فاحتمله إلى منزلها. ثم إن حرملة لما قتل الغفلي ركب في طلب مرقش حتى أتى موضع أسماء فخبّر أنه مات عندها، فانصرف ولم يرها، وكان مرقش وهو في ذلك الكهف قال هذه القصيدة: (١)

سرى ليلاً خيالاً من سُلَيْمَى	فأرَقَّنِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ
فَبِتُّ أَدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ	وَأَرْقُبُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدُ
عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارِ	يُشَبُّ لَهَا بَذِي الْأَرْضَى وَقُودُ
حَوَالِيهَا مَهَّأَ جُمُ التَّرَاقِي	وَأَرَامٌ وَغَزْلَانُ رُقُودُ
نَوَاعِمٌ لَا تَعَالِجُ بُوْسَ عَيْشٍ	أَوَانِسُ لَا تُرَاحُ وَلَا تَرُودُ
يَرْحَنُ مَعَا بَطَاءَ الْمَشِيِّ بُدَاً	عَلَيْهِنَّ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ
سَكَنَ بَبْلَدَةً وَسَكَنْتُ أُخْرَى	وَقُطِعَتِ الْمَوَاتِقُ وَالْعُهُودُ
فَمَا بَالِي أَفِي وَيُخَانَ عَهْدِي	وَمَا بَالِي أَصَادُ وَلَا أَصِيدُ
وَرُبُّ أَسِيلَةَ الْحَدِيدِ بَكْرٍ	مَنْعَمَةٌ لَهَا فَرَعٌ وَجِيدُ
وَذُو أُشْرٍ شَتَيْتِ النَّبْتَ عَذْبُ	نَقِيُّ اللَّوْنِ بَرَّاقُ بَرُودُ
لَهَوْتُ بِهَا زَمَاناً مِنْ شَبَابِي	وَزَارْتَهَا النَّجَائِبُ وَالْقَصِيدُ
أَنَاسُ كُلَّمَا أَخْلَقْتُ وَصَلَاً	عَنَانِي مِنْهُمْ وَصَلُّ جَدِيدُ

(١) شرح المفضليات للأنباري ص ٤٦٠ الأغاني ٦/١٤١ .

وكان حين علم برحيل أسماء يقول الشعر ويتشوق إليها ويذكرها بالوعود التي كانت بينهما، ويتغزل بها ويذكر مكانتها في نفسه وشوقه إليها ويتمنى أن يكون قريباً منها، ثم يفخر ببطولته وفروسيته، ويود أن يذكرها بأنه يكاد يموت حباً بها وشوقاً إليها، يقول: (١)

قل لأسماء أنجزى الميعادا	وانظري أن تزودي منك زادا
أينما كنت أو حلت بأرض	أو بلاد أحييت تلك البلادا
إن تكوني تركت ربك بالشا	م وجاورت حميراً ومُرادا
فارمحي أن أكون منك قريباً	فأسألي الصادرين والورادا
وإذا ما رأيت ركباً مخبياً	من يقودون مقربات جيدا
فهم صحتي على أرحل المي	س يزجون أينقاً أفرادا
وإذا ما سمعت من نحو أرض	بمحب قد مات أو قيل كادا
فاعلمي غير علم شكّ بآئي	ذاك وابكي لمصفد أن يفادي

ويحدث المرقش نفسه عما يعاني من جوى وضنى في حب أسماء ويذكر لوم الوشاة والعاذلين في حب أسماء، ويصور ما يصيبه من شوق وصبابة حين يذكرها وكيف نزل حبها من نفسه وقلبه وتسلط على أحساسه وكيانه: (٢)

أغالبك القلب اللجوجُ صبابةً وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبه
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه

(١) المفضليات ص ٤٣١ . مخين : من الخب، وهو ضرب من العدو. الميس: شجر تتخذ منه الرجال. يزجون: يسوقون ويدفعون. أينق: جمع ناقة على القلب، وأصله أنوق. أن يفادي: أي لا يقبل فداؤه .

(٢) الأغاني ٦ / ١٤٣ ولم ترد في المفضليات ولا شرح الأنباري. قفاف ورد: ارتجاف الحمى واصطكاك الأسنان. صالبه: شدة حرارته مع رعدة .

أُيْلِحِي امْرُؤٌ فِي حُبِّ أَسْمَاءَ قَدْ نَأَى بِغَمَزٍ مِنَ الْوَاشِينِ وَأَزُورٌ جَانِبُهُ
وَأَسْمَاءُ هُمُ النَّفْسُ إِنْ كُنْتَ عَالِمًا وَبَادِي أَحَادِيثِ الْفُؤَادِ وَغَائِبُهُ
إِذَا ذَكَرْتَهَا النَّفْسُ ظَلَّتْ كَأَنِّي يَزْعَزِعُنِي قَفْقَافٌ وَرَدِّ وَصَالِبُهُ

وهكذا كان المرقش من أوائل الشعراء المتيمين الذين أحبوا حباً عفيفاً
صادقاً وعانوا في سبيله حتى أودى بحياته. وصار المرقش قدوة ومثالاً
للشعراء المتيمين العذريين الذين جاؤا بعده وعانوا مثل ما عانى .

عبد الله بن العجلان وهنر

عبد الله (وقيل عمرو) بن العجلان بن الأحب بن عامر النهدي، شاعر من شعراء الجاهلية المتيمين توفي سنة ٥٠ قبل الهجرة/٥٧٢م أحب هنداً حباً شديداً أودى بحياته فضرب به المثل في العشق والضحى، وكان قدوة لشعراء الحب العذري في العصر الأموي ذكره الشعراء وتأسوا به ذكره قيس لبني وتأسى به كما تأسى بعروة بن حزام، في قوله : (١)

وفي عروة العذري إن مت أسوةً وعمرو بن عجلان الذي قتلت هندُ
وبي مثل ما ماتا به غير أنني إلى أجلٍ لم يأتني وقتُهُ بعدُ
ويذكر جميل بثينة من مات في الحب عشقاً ومنهم أخو نهد عبد الله بن
عجلان والمرقس وعروة صاحب عفرَاء: (٢)

قد مات قبلي أخو نهدٍ وصاحبُهُ مُرْقَشٌ واشتفى من عروة الكمدُ
وكلهم كان من عشقٍ منيتهُ وقد وجدتُ بها فوق الذي وجدوا
وكذلك يذكره كثير عزة باسم النهدي : (٣)

وعروة لم يلقَ الذي قد لقيتهُ بعفرَاء والنهديُّ ما أتفجعُ
أما نصيب بن رباح فيذكر كيف مات ابن عجلان كمداً في حبه لهند: (٤)
ووجدتُ وجداً لم يكن أحدٌ قبلي من أجلِ صبايةٍ يجدهُ

(١) أمالي القالي ٢/٢١٩ .

(٢) ديوان جميل ص ٥٧ .

(٣) ديوان كثير عزة ص ١٧٤ .

(٤) الأغاني ١/٣٤٢ - ٣٤٣ .

إلا ابنُ عجلانَ الذي تبكَّتْ هِنْدُ ففاتَ بنفسِه كَمَدُهُ

ذكر أبو الفرج الأصفهاني قصة حب عبد الله بن عجلان فقال: (١)

كان عبد الله بن العجلان النهدي سيِّداً في قومه وابن سيِّد من ساداتهم، وكان أبوه أكثر بني نَهْدٍ مالاً، وكانت هند امرأة عبد الله بن العجلان التي يذكرها في شعره امرأة من قومه من بني نَهْدٍ، وكانت أحب الناس إليه واحظاهم عنده، فمكثت معه سنين سبعاً أو ثمانياً لم تلد، فقال له أبوه: إنه لا ولد لي غيرك، ولا ولد لك، وهذه المرأة عاقر، فطَلَّقْها وتزوج غيرها، فأبى ذلك عليه، فألى ألا يكلمه أبداً حتى يطلقها، وتذهب الرواية إلى شدة تعلق عبد الله بزوجه هند، وعصيانه رأي أبيه، ولكن عبد الله شرب ذات يوم حتى سكر، وكان جالساً مع هند، فعلم بذلك أبوه، فاهتبلها فرصة وأرسل عليه، وعلمت هند مقصد أبيه في هذه الدعوة، فتمسكت به وحاولت منعه قائلة: إنما يريدك لأنه علم أنك سكران، فطمع فيك أن يقسم عليك فتطلقني، فأبى عبد الله وعصاها، ولما كان في مجلس أبيه أتته وضعفه وجمع عليه مشيخة الحي وفتيانهم، فتناولوه بالسنتهم وعيروه بشغفه بهند وضعفه وقله حيلته، ولم يزالوا به حتى طلقها وهو مخمور، فلما أصبح وصحا أخيراً بذلك فندم وأسف اسفاً شديداً، أما هند فحين علمت بفعلته احتجبت عنه وعادت إلى أبيها، فخطبها رجل من بني غير فزوجها أبوها منه، ثم أخرجها زوجها إلى بلده. وبقي ابن عجلان يعاني الندم فسقم وضني وصار يبكي ويقول فيها الشعر، وعرض عليه أهله فتيات الحي جميعاً فلم يقبل منهن واحدة، وصار يبكي حظه وسوء فعلته ويتشوق إليها

(١) الأغاني ٢٢/٢٣٨ - ٢٣٩ .

ويتذكر طيب أيامه معها ويصف محاسنها فيقول: (١)

فارقْتُ هنداً طائعاً فندمتُ عندَ فراقها
فالعينُ تذري دمعاً كالدُّرِّ من أماقها
متحلّياً فوقَ الردا ِ ِ يجولُ من رَقْرَاقِها
خَوْذُ رَدَاحٍ طَفْلَةٌ ما الفحشُ من أخلاقها
ولقد ألدُّ حديثها وأسرُّ عندِ عناقِها

وبقي ابن عجلان يحن إلى هند ويحاول أن يراها عن بعد، وكانت بين قومه بني نهد وبين قوم زوجها بني نمير من بني عامر حروب وتترات، وكان زوجها غيوراً عنيفاً، فهي تخشى على عبد الله منه إن رآه أو أقترب منها، ويصور حاله وحال حبيبته وهي بين أترابها يرمقها من بعيد وهي تتبختر في مشيها كأنها قطة، ترمقه وتحذره من زوجها الغيور، فيقول: (٢)

ألا أبلغا هنداً سلامي فإن نأتُ فقلبي مَدَّ شَطَطُ بها الدارُ مُدْنَفُ
ولم أرَ هنداً بعدَ موقفِ ساعة ِ بأنعمَ في أهلِ الديارِ تطوَّفُ
أتتُ بينَ أترابِ تَمَاسٍ إِذْ مَشَتُّ دَبِيبَ القَطَا أو هُنَّ منهنَّ أَقْطَفُ
يباكرنَ مرأةً جلياً وتارةً ذكياً وبالأيدي مَدَاكُ ومِسوْفُ
أشارتُ إلينا في حَفَاةٍ وراعِها سراهُ الضُّحى مني على الحَيِّ موقِفُ
وقالتُ تَبَاعَدُ يا ابنَ عمِّي فإنني مُنيتُ بذي صَوْلٍ يَغَارُ وَيَعْنُفُ
وبقيت نفس ابن عجلان تتشوق إلى هند وتتطلع إلى رؤيتها، وقد

(١) الأغاني ٢٢/٢٣٩ . الخود: الناعمة الحسنة الخلق. الرداح: الممتلئة الردفين. طفلة: رخصة ناعمة .

(٢) الأغاني ٢٢/٢٤٥ . شطت : بعدت. مدنف مريض شديد المرض. تماس: تتمايل. المداك : ما يسحق عليه الطيب. المسوف: ما يشام به الطيب .في حفاة: في سر.

شغلت نفسه وملأت عليه أحاسيسه وصار يحن إليها ويتمنى لقاءها فهو
يهفو إليها ولا يملك إلا أن يرسل إليها الرسل ليخبرها بما لقي من محن
وضنى، وسيسقيه هذا الحب كأس منيته : (١)

خليلي زورا قبل شحط النوى هندا ولا تأمنا من دار ذي لطف بعدا
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجة أغيا يلاقي في التعجل أم رُشدا
ومرأ عليها بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لوجهي كما قصدا
وقولا لها ليس الضلال أجازنا ولكننا جزنا لنلقاكم عمدا
غدا يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من دياركم بعدا
ويشدد الوجد بابن عجلان ويفقده عقله ورشده، وقد مرض وساءت
حاله، فخرج سراً من أبيه مخافاً بنفسه، حتى أتى أرض بني عامر على ما
بينهم من عدا وثارا، " حتى نزل أرض بني نمير، وقصد خباء هند فلما
قارب دارها رآها وهي جالسة على الحوض، وزوجها يسقي ويزود الإبل عن
مائه، فلما نظر عبد الله إليها ونظرت إليه، رمى بنفسه عن بعيره، وأقبل
يشدد إليها، وأقبلت تشدد إليه، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، وجعلا
بيكيان وينشجان ويشهقان ، حتى سقطا على وجهيهما، فأقبل زوج هند
ينظر ما حالهما، فوجدهما ميتين ". (٢)

وهكذا تطوى صفحة هذين العاشقين اللذين ماتا عشقاً وقد حرما بهجة
طيب العيش وبهجة الحياة، وصارت قصة جبهما مثلاً للعشاق العذريين
الذين ذكروا قصة جبهم وتأسوا بهم . وسيتكرر مشهد الموت هذا عند عروة
وعفراء وقيس ولبنى .

(١) الأغاني ٢٢ / ٢٤٥ وتزيين الأسواق ٩٣/١ .

(٢) الأغاني ٢٢ / ٢٤٣ .

قيس بن الحداوية (نعم)

شاعر من الصعاليك الفتاكين الخلقاء، أكثر شعره في الغارات والحروب، أحب امرأة من بني خزاعة، فرّق شعره وصار من الشعراء المتيمين في الجاهلية .

هو قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد من خزاعة، وهو أحد من نُسب إلى أمه من الشعراء، والحداوية أمه وهي امرأة من محارب بن خَصَفَةَ بن قيس عيلان، ومن قبيلة منهم يقال لهم بنو حُدَاد (بضم الحاء وكسرهما) . وقيس شاعر من شعراء الجاهلية كان فاتكاً شجاعاً صعولوكاً خليعاً، خلعتة خزاعة بسوق عكاظ لكثرة جرائره (١).

تعلق قيس بنُعَم بنت ذؤيب الخزاعية وكان يجالسها وهي مع أترابها من النساء وتحديثه، فعشقتها وعشقتة وتمكن الحب من قلبه، وكان قوم نعم قد خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجدبوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البرق خلفهم، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته، فرجع قوم نُعم ، واشتد أوار الحب في قلب ابن الحداوية وصار يقول الشعر في نُعم وهي تحاوره وتسامرته، فلما ارتحلوا صار قيس يتشوق إليها ويذكر فراقها وبعادها، فقال فيها قصيدته العينية وهي من عيون الشعر، حتى إن عائشة بنت طلحة قد استحسنت هذه القصيدة وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت : " من قدر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حُلتي هذه، فلم يقدر أحد منهم على ذلك " . (٢)

(١) الأغاني ١٤: ١٤٢ - ١٤٣ . (٢) الأغاني ١٤/ ١٥٦ .

ويبدأ ابن الحدادية هذه القصيدة يحدث نفسه عن شدة جزعه بفراق حبيبته ويذكر أيامه الحلوة وإياها، وهي قريبة منه ولكنها تضن بالنوال متمنعه وهذا ما يزيد من وجد حبيبها وأشواقه: (١)

أجْدَكَ إِنْ نُعِمُ نَأَتْ أَنْتَ جَازِعٌ قَدْ اقْتَرَبْتُ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ
قَدْ اقْتَرَبْتُ لَوْ أَنَّ فِي قُرْبِ دَارِهَا نَوَالاً وَلَكِنْ كُلُّ مَنْ ضَنَّ مَانِعٌ
وَقَدْ جَاوَرْتَنَا فِي شَهْوَرٍ كَثِيرَةٍ فَمَا نَوَكْتُ وَاللَّهُ رَاءٍ وَسَامِعٌ
وَقَدْ فَارَقْتُ نَعْمَ وَرَحَلْتُ وَأَهْلَهَا، وَيَقِي ابْنَ الْحَدَادِيَةِ يَحِنُّ إِلَيْهَا وَيُرْسِلُ لَهَا
التحايا والأشواق ويتذكر الأيام الطيبة وما كان له معها من لقاء وأحاديث،
ويود أن تحفظ نعم الود ولا تنسى الحبيب، ويستعجلها بالعودة بعد الفراق،
ويذكر محاسنها وشمائلها يوم لقيها وتعرف إليها، فيزداد شوقاً ووجداً
وضنى:

فَإِنْ تَلَقَيْنَ نَعْمَى هُدَيْتَ فَحَيْهَا وَسَلَّ كَيْفَ تُرَعَى بِالْمَغِيبِ الْوَدَائِعُ
وَضَنِي بِهَا حِفْظُ لَغَيْبِي وَرِعِيَّةٌ لَمَّا اسْتَرَعَيْتُ وَالظَّنُّ بِالْغَيْبِ وَاسِعٌ
وَقَلْتُ لَهَا فِي السَّرِّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَلَى عَجَلٍ: أَيَّانَ مَنْ سَارَ رَاجِعٌ؟
فَقَالَتْ لِقَاءٌ بَعْدَ حَوْلٍ وَحِجَّةٍ وَشَحْطُ النَّوَى إِلَّا لَذِي الْعَهْدِ قَاطِعُ
وَقَدْ يَلْتَقِي بَعْدَ الشَّتَاتِ أَلْوَانُ النَّوَى وَيَسْتَرْجِعُ الْحَيَّ السَّحَابُ الْوَدَامِعُ
وَمَا إِنْ خَدُولٌ نَازَعَتْ حَبْلَ حَابِلٍ لَتَنْجُوَ إِلَّا اسْتَسَلِمَتْ وَهِيَ ظَالِعُ
بِأَحْسَنَ مِنْهَا ذَاتَ يَوْمٍ لَقِيَتْهَا لَهَا نَظْرٌ نَحْوِي كَذِي الْبَيْتِ خَاشِعُ
رَأَيْتُ لَهَا نَاراً تُشَبُّ وَدُونَهَا طَوِيلَ الْقَرَا مِنْ رَأْسِ دَرْوَةِ خَاشِعُ
ويذكر ما يفعله الوشاة بين المحبين، وخوف نعم وبكائها من تقولات

(١) الأغاني ١٤/١٥٢ - ١٥٥، وانظر شعر ابن الحدادية ضمن شعراء مقلون ص ٢٢

- ٢٩ وفيه تخريج الشعر .

الوشاة، ويظمنها أن سرهما مكتوم بين أضلاعه لم يطلع عليه احد: (١)
بكت من حديث بثه وأشاعه ورصفه واش من القوم راصع
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا

ولا تتخالجك الأمور النوازع
فلا يسمعن سرِّي وسركِ ثالثُ ألا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين شائعُ
وكيف يشيعُ السرُّ مني ودونهُ حجابٌ ومن دون الحجاب الأضالعُ
ويتحدث قيس عن ساعة الفراق وما كان يعانيه من خوف البعاد، وقد
بكى حسرةً وإشفاقاً، ويصور شوقه وعواطفه المنتهية ساعة الوداع، ولا يدري
ما هو فاعل وقد عصر الفراق قلبه فلا يتحمل هذا المشهد ولا يستطيع صبراً
(٢):

بكى من فراق الحيِّ قيسُ بنُ منقذٍ وإذراءُ عيني مثله الدمعُ شائعُ
بأربعة تنهلُ لما تقدمتُ بهم طرُق شتى وهنَّ جوامعُ
وما خلّتُ بينَ الحيِّ حتى رأيتهم ببينونة السفلى وهبتُ سوافعُ
وإني لأنهي النفسَ عنها تجملاً وقلبي إليها الدهر عطشانُ جانعُ
كأنَّ فؤادي بينَ شقين من عصاً حذارٍ وقوع البيّن والبين واقعُ
هذه حال قيس بن منقذ وقد صور معاناته عند الفراق، أما نعم فكانت

عند الوداع تذرف الدموع الغزار وتسأله متى يرجع ويكون اللقاء؟ وهو لا
يدري متى يجتمع الشمل ويكون اللقاء، فما كان لها حيلة إلا أن
تذرف الدمع، وكلاهما عزم أن يحفظ الود ويرعى العهد حتى يفرقهما الموت:
فقلتُ لها يا نعمُ حلِّي محلنا فإنَّ الهوى يا نعمُ والعيشُ جامعُ

(١) رصف الحديث: جمعه ونظمه. الراصع: المزين للكلام.

(٢) بينونة: موضع بين عمان والبحرين.

فقال وعيناها تفيضان عبيرةً بأهلي بَيْنَ لي متى أنتَ راجعُ
 فقلتُ لها تالله يدري مسافرٌ إذا أضمرتَه الأرضُ ما اللهُ صانعُ
 فشَدَّتْ علي فيها اللثامَ وأعرضتْ وأمعنَ بالكُحلِ السحيقِ المدامعُ
 وإني لعهدِ الودِّ راعٍ وإنتي بوصلك ما لم يطوني الموتُ طامعُ
 وترحل نعم، ويبقى قيس يحن إليها وإلى أيامها الماضية ويحدثها على
 البعد عن حاله وما يعانیه من شوق ووجد، وكيف تغيرت به أحوال الدنيا
 فليس له إلا التذكر وقد نزلت به المصائب والهجوم، ولن يسليه عنها إلا
 ركوب المخاطر وخوض غمرات الحروب: (١)

سقى الله أطلالاً بنعمٍ ترادفتُ بهنَّ النوى حتى حللنَّ المطايا
 فإن كانت الأيامُ يا أمَّ مالكٍ تُسَلِّكُنَّ عني وتُرْضي الأعدايا
 فلا يَأْمَنَنَّ بعدي امرؤٌ فجَعَّ لذةً من العيشِ أوفَجَعَ الخُطوبِ العوافيا
 وبُدِّلَتْ من جدواك يا أمَّ مالكٍ طوارقُ همٍّ يحتضرنَّ وساديا
 وأصبحتُ بعد الأتسِ لايسَ جبةً أساقِي الكُماةِ الدارعينَ العوافيا
 وبقي قلبه متعلقاً بحبيته، وهو قلق لا يدري ما حل بها بعد طول
 الغياب، وقد تراوده الظنون أن يكون نزل بنعمٍ مكروه، ويود أن يتعرف
 أخبارها، فإن حياته بعدها عذاب وجحيم لا تطاق، ويتمنى الموت دون أن
 يسمع ناعياً ينعاه، ويتضرع إلى الله تعالى أن يعينه ويصبره على بعدها،
 أما إذا أصابها البلاء أو طواها الردى فإنه موقن أنه ميت لا محالة: (٢)

(١) الأغاني ١٥٦/١٤ - ١٥٧، شعر ابن الحدادية ص ٣٥ - ٣٧. المطالي: أرض
 بنجران، وأصلها الأرض اللينة السهلة. العوافي: التي تمحو وتطمس. الجبة: الدرع.
 العوالي: الرماح.

(٢) القذال: جماع مؤخر الرأس. استهام فؤاده: أذهبه.

خليليَّ إنْ دارتْ عليَّ أمُّ مالكٍ صُرُوفُ اللَّيالي فابعثا لي ناعيا
 ولا تتركاني لا لخيرٍ معجَلٍ ولا لبقاءٍ تنظرانِ بقائيا
 وإنَّ الذي أمَلْتُ من أمِّ مالكٍ أشابَ قذالي واستهامَ فؤاديا
 فليتَ المنايا صَبَحَتْنِي غُدِيَّةً بدَّبِحَ ولم أسمعَ لبينِ مناديا
 شكوتُ إلى الرحمنِ بعدَ مزارها وما حَمَلَتْنِي وانقطاعِ رجائيا
 وقد أيقنَتْ نفسي عشيَّةَ فارقوا بأسفَلَ وادي الدَّوحِ أنْ لا تلاقيا
 إذا ما طواكَ الدهرُ يا أمَّ مالكٍ فشانُ المنايا القاضياتِ وشانيا

وظل ابن الحدادية وفيًا لحبيبهته يذكرها في شعره ويتشوق إليها ويتمنى لقاءها حتى وافته المنية، وكان موته موت بطل مقاتل لم يقبل الضيم ولم يستأسر، ذكر الأصفهاني خبر مقتله فقال: (١) "قال أبو عمرو: وكان من خبر قيس بن الحدادية أنه لقي جمعاً من مُزينة يريدون الغارة على بعض من يجدون منه غرّة، فقالوا له: استأسر، فقال: وما ينفعكم مني إذا استأسرتُ وأنا خليع؟ والله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عنزاً جرياء جذماء ما أعطيتموها، فقالوا له: استأسر لا أم لك، فقال: نفسي عليّ أكرم من ذلك، وقاتلهم حتى قتل".

(١) الأغاني ١٤ / ١٥٧ - ١٥٨ .